(مجالس المنصور بن ابي عامر واثرها في الشعر بقرطبة)

الدكتور حلمي ابراهيم عبدالفتاح الكيلاني
جامعة مؤتة*

ملخص

يتناول هذا البحث مجالس المنصور بن ابي عامر واثرها في الشعر الأندلسي آنذاك ، إذ كانت مسرحاً من اكبر مسارح الأفكار ، ومظهراً بارزاً من مظاهر الحياتين العقلية والاجتماعية مثلما كانت عاملا من اقوى العوامل التي أسهمت في تنشيط الحركة الأدبية والفكرية عامة ، والشعرية خاصة ، اذ فتحت امام الشعراء ابواباً واسعة من التامل والتخيل ،وأمدتهم بموضوعات جديدة للقول والإبداع .

وتكمن اهمية هذا البحث في انه عرفنا إلى اهتمام المنصور بن ابي عامر بالشعر والشعراء وإلى مقاييسه في الحكم عليهم من ناحية ، وإلى طبيعة حياته الخاصة وميله إلى اللهو حينما يتاح له ذلك من ناحية اخرى . يضاف إلى هذا كله أنّ مجالس الأدب واللهو كانت صورة صادقة من حياة الطبقة الحاكمة في الأندلس .

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب / قسم اللغة العربية . دكتوراه أدب عربي ، الجامعة الأردنية ١٩٨٨م .

توطئة :

كانت مجالس المنصور بن ابي عامر (١) بقرطبة من ابرز مظاهر النشاط الأدبي والفكري ، مثلما كانت مظهراً بارزاً من مظاهر الحياتين الاجتماعية والحضارية فيها ، ذلك لأن المنصور بن ابي عامر الذي تولى الحكم بقرطبة بعد ان حجر على الخليفة الأموي الصغير هشام المؤيد واستبد بالسلطة دونه ، كان محباً للشعر والشعراء مكرماً لهم . يقول الحميدي : ((... وكان المنصور محباً للعلم ، مؤثراً للأدب مفرطاً في اكرام من ينتسب اليه ، ويفد اليه متوسلا بهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ، ومشاركته فيهما)) (٢) .

ولذا ، فقد قصده الشعراء والأدباء من كل حدب وصوب لما سمعوه عن حبه وتقديره لهم ، حتى غدا بلاطه ندوة ادبية وفكرية من الطراز الأول ، إذ كان غاصاً برجال الأدب والفكر ، الذين عملوا على تحقيق هذا المظهر الأدبي الرفيع من مظاهر الأُبهة والترف الفكري بما كانوا يقومون به في مجالس المنصور من مناظرات ادبية ، ومساجلات وتطارح للأفكار والأشعار.

ومن مظاهر اهتمام المنصور بالشعر والشعراء وعنايته بهم ذلك المجلس الادبي الاسبوعي الذي اقامه في قصره، وكان يحرص على حضوره والمشاركة فيه على الرغم من مشاغله السياسية الجمة ، وانشغاله بمحاربة نصارى الشمال لكي يؤمن حدود الدولة الإسلامية آنذاك . يقول الحميدي : «... وكان له مجلس معروف في الاسبوع يجتمع فيه اهل العلوم للكلام فيها بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة» (٣) .

ومنها ايضاً انه اسند مهمة الإشراف على مجلسه الرسمي الذي اقامه للشعراء إلى شخصية ادبية مرموقة ، عرفت بتميزها في ميداني الأدب والنقد بالأندلس الا وهو عبدالله بن محمد بن مسلمة الذي كان كما يصفه الحميدي : «... من

اهل العلم والأدب ، وناقداً من نقاد الشعر ، وكان رئيساً جليلا في ايام المنصور بن ابي عامر ملك الأندلس ، وفي ديوانه كان زمام الشعراء في تلك الدولة ، وعلى يديه كانت تخرج صلاتهم ورسومهم ، وعلى ترتيبه كانت تجري امورهم» (٤) .

ومع اعترافنا بحب المنصور بن ابي عامر للشعر والشعراء وعنايته بهم من ناحية ، وتذوقه الشعر ومكافأته عليه من ناحية اخرى ، الا اننا مع ذلك كله نرى ان هناك دوافع اخرى ربما كانت تكمن وراء اهتمامه الزائد بالشعر والشعراء وعنايته بهم ومنها : رغبته في السلطة والتفوق السياسي والحضاري على بني أمية الذين كانوا كذلك مشغوفين بمجالسة العلماء والأدباء ، وبمظاهر الترف الحضاري ، وخاصة بعد ان استولى على السلطة وحجر على الخليفة الأموي الصغير هشام المؤيد ، فقرب منه الشعراء ، واستعان بهم لكي يكونوا عوناً له في شؤون دولته من ناحية ، ووسيلة من وسائله الدعائية من ناحية اخرى ، إذ ادرك بحنكته وفطنته دور الشعر والشعراء في التوجيه السياسي والاجتماعي ، وتكوين الرأي العام الذي من شأنه ان يكسبه ثقة الرعية ويقدمه لها بصورة مثلى . يقول الأستاذ علي ادهم : «... وكان المنصور يقدر قيمة الكتّاب والشعراء بوجه خاص من الناحية السياسية والوجهة الاجتماعية ، ويعرف اثرهم البعيد في تكوين الرأي العام وتوجيه الأفكار ، ولفت الأنظار ، واكتساب الشهرة ، وتوطيد المكانة . وكان هذا هو اكبر البواعث عند هذا السياسي الداهية إلى تقريبهم والعناية بهم واجتذابهم إلى صفه لاستغلال ملكاتهم في بناء مجده ، وتحقيق اهدافه» (٥) .

ومنها ايضاً ان المنصور كان يسعى من وراء ذلك كله إلى ان يجمع حوله الكتاب والشعراء ، لكي يحول انظارهم اليه ، ويشغلهم عن أمراء بني أمية ،

فيكونوا السنة تلهج بذكره وتتغنى بمآثره واعماله . ويكفينا للتدليل على ذلك ان نورد حديث ابن بسام في ترجمة صاعد البغدادي (٦) ، وذلك إذ يقول : «... وكان طالع على آفاق الجزيرة في ايام المنصور محمد بن ابي عامر نجماً من المشرق غرب، ولساناً عن العرب اغرب، أبدهُ من رأى وسمع ، واذكى من طار ووقع . فأراد المنصور ان يعفي به آثار ابي علي البغدادي الوافد على بني أُميّة قبله» (٧) .

وربما اراد المنصور من وراء ذلك كله ان يجعل من قصره صورة عن قصور خلفاء المشرق من ناحية ، وقصور أُمراء بني أُميّة من ناحية اخرى ، لكي يتوافر له ما توافر لهم من مظاهر الترف الأدبي والفكري ، اذ هي صورة من صور الترف والأُبهة التي يحرص عليها الحكام . ذلك لأن الأمير او الحاكم الذي ينفصل عن قاعدته يجتهد في منافسة اصله الذي استقل عنه (٨) ، وخاصة في المجالات والميادين التي عرف بها .

ولذا ، فقد اولى المنصور الشعر والشعراء في قصره عناية خاصة ، وعمل على تشجيعهم من الناحيتين : المادية والمعنوية ، فأغدق عليهم الاموال الطائلة (٩) ، واسند اليهم المناصب الرفيعة في دولته ، لكي ينافحوا عنها ، ويكونوا عوناً له في تحقيق مآربه وأهدافه .

ومن اجل ذلك ، فقد كان حريصاً على ان يجمع حوله النابهين من الأدباء عامة ، والشعراء خاصة ، إذ كان متشدداً في قبولهم في محافله الأدبية وديوان شعره ، ولا يسمح لأي منهم أن يصل إلى مجلسه ومنادمته الا إذا اجتاز اختباراً بل اختبارات قاسية تكشف عن تمكنه من ادوات فنه الشعري من جهة ، وعن ذكائه وسرعة بداهته من جهة أُخرى ، حتى يطمئن اليه ، ويضمن موهبته الشعرية التي سيقطف ثمارها فيما بعد .

ومن هنا ، فإنّ الناظر فيما وصلنا من اخبار المنصور بن ابي عامر ومجالسه الأدبية ، يلحظ ان الأدباء والشعراء هم فرسانها المتسابقون في حلبتها ، إذ كانوا يتساجلون القول ، ويتناظرون في شتى المسائل ، ويتناشدون الشعر . فعملوا بذلك كله على تنشيط الحركة الفكرية والثقافية، وهيأوا الجو المناسب لقيام مثل هذه المجالس التي كانت من اكبر مسارح الأفكار، وافخم مظاهر الجمال ، ومظهراً بارزاً من مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية معاً (١٠) .

انواعها :

اولا : المجالس الرسمية :

وهي المجالس التي كان المنصور بن ابي عامر يعقدها في قصره بصفة دورية اسبوعية ، ويدعو اليها كبار رجال دولته وخاصة ندماءه الذين كانوا ما بين اديب وشاعر من امثال : الزبيدي (١١) ، وابن العريف (١٢) ، والطبني (١٣) ، وابن ابي الحباب (١٤)، والعاصمي (١٥) ، وابن شهيد (١٦)، وابن حزم (١٧)، والجزيري (١٨) ، والقائد يعلى (١٩) ، وغيرهم (٢٠) . وذلك من اجل مقابلة الشعراء الوافدين الجدد واختيار النابهين منهم لمجالسته من ناحية ، ومناقشتهم في مسائل الأدب واللغة من ناحية اخرى ، إذ كان المنصور قبل ان يلحق الشعراء في مجلسه ، ويستخدمهم في بلاطه ، يجري لهم اختبارات مختلفة متنوعة اساس النجاح فيها يقوم على سرعة البداهة والارتجال من جهة ، وجودة الإبداع والابتكار من جهة اخرى .

وقد كان المنصور هو صاحب المبادرة في ادارة هذه المجالس ، ومناقشة الشعراء الوافدين والاستماع اليهم ، وخاصة حينما كانت التهم والشكوك تثار حولهم من قبل منافسيهم في مجلس المنصور الذي كانوا يعملون على إبعاد كل وافد جديد عنه حتى يخلو لهم الجو .

ولذا ، فقد كان المنصور حريصاً على ان يسمع الشعراء الوافدين ، لكي يتأكد من صدق التهم المنسوبة اليهم ،او عدمها ، وذلك بحضور من ينافسونهم من اعضاء مجلسه ، او من رموهم بالسرقة والانتحال منهم ، حتى يجعل الشاعر المتهم يقدم اجود ما عنده من ناحية ، ويكون الاختبار بحضور علماء مجلسه وادبائه محبوكاً حبكاً دقيقاً من ناحية اخرى .

واما الاختبار نفسه ، فغالباً ما كان يدور حول وصف شيء من موجودات المجلس من اثاث او فاكهة او زهر او اي شيء آخر كان قد أُعد إعداداً مسبقاً لهذه الغاية من قبل المنصور واعوانه ، ثم يفاجأ الشاعر الوافد — حينما يدخل المجلس — بالمنصور نفسه يقترح عليه ان يرتجل مقطوعة او قصيدة تتعلق بمادة الاختبار . واذا ما اجتازه الشاعر ببراعة ، واحسن الوصف والتصوير الذي ينم عن ارتجال مبتكر، سُجّل في الديوان ، وغدا شاعراً رسمياً ، وانثالت عليه الصلات والأعطيات (٢١) .

ويكفينا للتدليل على ذلك أن نورد الاختبار الذي أعده المنصور لأديبين مشهورين كانا قد وفدا عليه ، وهما : صاعد البغدادي ،وابن دراج القسطلي أمّا صاعد ، فقد حدثنا ابن بسام عن طبيعة الاختبار الذي أعد له إثر ماأثير حوله من التهم، وما وجه إليه من مطاعن نالت من موهبته الشعرية ، وذلك إذ يقول : ((... فلمّا أصبح (المنصور) وجه عنه بمجلس حفل . وقد أعدّ طبقاً فيه سقائف من ضروب النواوير : ووضع على السقائف جواري ياسمين، وتحت السقائف بركة ماء حصاها اللؤلؤ ، وكان في البركة حيّة تسبح .فلمّا دخل صاعد مثل الطبق بين يديه ، فقال له المنصور : إنّ هذا يوم إمّا أن تسعد فيه معنا ، وإمّا بالضدّ عندنا ،لأنّه قد زعم قوم أنّ كلّ ماتأتي به دعوى ، وقد وقعت من ذلك على حقيقة . وهذا طبق ماتوهمت أنّه مُثّل بين يدي ملك قبلي في شكله ، فصفه بجميع مافيه . فقال صاعد بديهة :

أبا عامرٍ هل غير جدواك واكفُ ... وهل غيرُ من عاداك في الأرض خائفُ
يسوق إليك الدهر كلَّ عجيبةٍ ... وأعجبُ مايلقاه عندك واصفُ
وشائعُ نَوْرٍ صاغها هامِرُ الحيا ... عليها فمنها عبقر ورفارفُ
ولمّاتنا هي الحسْن فيها تقابلت ... عليها بأنواع الملاهي الوصائفُ
كمثل الظبّاء المستكنّة كُنّسا ... تُظلّلها بالياسمين السّقائفُ
وأعجبُ منها أنّهنَّ نواظرٌ ... إلى بركة ضمّت إليها الظّرائفُ
حصاها اللآلي سابح في عُبابها ... من الرّقش مسموم اللّعابين زاحفُ
ترى ماتشاء العيّن في جنباتها ... من الوحش حتى بينهنّ السلاحف (٢٢)

هذا ومع أنّ المادة المعروضة للوصف ــ كما نرى ــ كانت مركبة شائكة ، إلاّ أنّ صاعداً استطاع بما أُوتي من حسٍّ دقيق ، ومقدرة فائقة على التصوير والإبداع أن يقدّم لنا وصفاً دقيقاً مرتجلاً أعمل فيه كلُّ حواسه ، وسخرّ له كلّ مالديه من طاقات فنّية جعلته يفرض نفسه وشاعريته على الحاضرين بمن فيهم المنصور الذي عبّر عن إعجابه بما صدر عن صاعد . وهذه مقدرة لاتتأتى إلاّ لشاعر متمكّن من أدوات فنه الشعري، كيف لا وهو يريد أن يدفع عنه التهم الموجهة إليه من ناحية ، وأن يرسّخ أقدامه في بلاط المنصور من ناحية أُخرى ؟ وفي هذا يقول ابن بسّام : ((...فاستغربت له يؤمئذ تلك البديهة ، وكتبها المنصور بخطّه . وكان إلى ناحية سقيفة فيها جارية تجذّف بمجاذيف ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور أجدت إلاّ أنك لم تصف هذه الجارية ، فقال :

وأعجبُ منها غادةٌ في سفينةٍ ... مُكلّلة تصبو إليها المهايفُ
إذا راعها موْجٌ من الماء تتّقي ... بسكّانها ماأنذرته العواصفُ
متى كانت الحسناءُ رُبّان مركبٍ ... تُصرِّف في يُمنى يديها المجاذفُ
فلم ترَعني في البلاد حديقةً ... تُنَقّلها في الرّاحتين المناصِفُ)) (٢٣)

وأمّا الاختبار الذي أعدّه المنصور أيضاً لابن درّاج القسطلي ليتأكد من شاعريته وصدق موهبته الشعرية. وخاصة بعد أن اتّهمه من بمجلس المنصور بالسرقة والانتحال إثر القصيدة التي رفعها إليه مادحاً ومطلعها (٢٤).

أضاء لها فجرُ النُّهى فنهاها عن الدَّنف المُضني بحرِّ هواها

فقد أشار اليه الحميدي في معرض حديثه عن قصيدة ابن درّاج التي تقدم ذكرها ، وذلك إذ يقول : (... وهي طويلة مستحسنة، فساء الظنّ بجودة ماأتى به من الشعر ، واتّهم فيه ... فسعى به إلى المنصور وأنّه منتحل سارق لايستحق أن يثبت في ديوان العطاء فاستحضره المنصور عشي يوم الخميس لثلاث من شوال سنة (٣٨٢) ، واختبره ، واقترح عليه فبرز وسبق ، وزالت التهمة عنه ، وأجرى عليه الرزق ، وأثبته في جملة الشعراء)) (٢٥) .

ولكنّ الحميدي لم يذكر لنا تفاصيل ذلك الاختبار ، ولم يحدثنا عن طبيعة المادة التي أعدّها المنصور لاختبار ابن درّاج. وقد ذهب الأستاذ محمود مكّي (٢٦) إلى أنّ الاختبار الذي أعدّه المنصور لاختبار ابن درّاج كان يدور حول وصف طبق تفاح احيط بأزهار البهار . ولكنني مع ذلك لم اظفر برواية فيما توافر لي من كتب الأدب والتراجم تؤيد ما ذهب اليه الأستاذ مكّي ، كما انني لم اجد في ديوان ابن دراج اية اشارة الى ذلك ، اللهمّ الاّ الأبيات التي اوردها جامع الديوان ، وقد قدم لها بقوله «وله ايضاً في المنصور إبن ابي عامر رحمهما الله ، ولها قصة طويلة» (٢٧) ، ثم اورد الأبيات التالية :

يا حبذا خجل التفاح في طبق مُنضّد بجني الزهر مُتّسق
فيه عيونُ بَهار قد احطن به نواظراً بجُفون العاشق الأرق
كأنّ ما احمرّ من تفاحه خجلاً بدرٌ بدا قطعاً من حُمرة الشفق
في مجلس الملك المنصور يانعة كأنما غُذيت من جودهِ الغدق

ومع ذلك كله يظل الأمر قائماً على التقدير والاستنتاج ، وبحاجة إلى دليل قاطع على ان الأبيات السابقة هي مادة الاختبار التي اكدت للمنصور سرعة بداهة ابن دراج ومقدرته على الوصف المرتجل. وإنْ كنا نلمح فيها طابع ما يُمتحن فيه الشعراء في مجالس المنصور وغيرها .

ومهما يكن من امر ، فإنّ مصير الشاعر ووجوده في بلاط المنصور بل في دولته كان مرهوناً باجتياز اختباره من ناحية ، وبمقدرته على الوصف المرتجل من ناحية أخرى . ولذا ، فإنّ الشعراء كانوا يعبّرون عن فرحتهم ونشوتهم حينما كانوا يجتازون ذلك الاختبار ، ويكسبون ثقة المنصور ، ويصبحون شعراء رسميين في مجلسه . وذلك على نحو ما نرى في قول صاعد البغدادي معبّراً عن نشوته بالظفر والانتصار إثر نيله إعجاب المنصور ، وذلك إذ يقول (٢٨) :

فأنت امرؤ لو رمت نقل مُتالعٍ ... ورضوى ذرَتها من سُطاك العواصفُ
إذا قلت قولاً او بدهت بديهة ... فكلني لها إني لمجدك واصِفُ

وعلى نحو ما نرى في قول ابن دراج ايضاً مشيراً إلى الاختبار الذي عقد له في مجلس المنصور ، متغنياً بظفره وبإجادته الارتجال ،وذلك إذ يقول (٢٩) :

يأبى لك الله إلاّ ان تفوز بها ... خيراً ثواباً وخيراً عنده عُقُبا
أياديا إنْ اكن مخصوص نصرتها ... فقد عَممت بهنّ العلم والأدبا
وانعما اكسبتني عز مفخرها ... وغادرت كاشحي رهناً بما كسبا
فإن يقع جهد شكري دونهنّ فقد ... اوجبن من حسن ظنيّ فوق ما وجبا
من بعد ما اضرم الواشون جاحمة ... كانت ضلوعي واحشائي لها حطبا
ودسوا في مثنى حبائلهم ... شنعاء بتّ بها حرّان مكتئبا
حتى هُزِمت فلا زند القريض كبا ... فيما لدي ولا سيف البديه نبا
واشرقت شاهدات الحق تنشر لي ... نوراً غدت فيه اقوال الوشاة هبا .

ومهما يكن من امر ، فإن اختبارات المنصور لبدائه شعرائه لم تكن تقتصر على الاختبار الأول الذي كان يعقده لهم إثر ما يلصق بهم من تهم تتعلق بشاعريتهم ومواهبهم . وإنما كان يحاول ان يختبرهم في غير مرة ، لكي يتأكد من صدق بداهتهم من ناحية ، ويجعلهم في تيقظ دائم ودربة مستمرة تعمل على صقل مواهبهم وتنميتها ، وتحملهم على الإبداع الذي سيقطف ثماره فيما بعد من ناحية أخرى . وقد تمثّل ذلك في امرين كان المنصور يحرص عليهما حرصاً كبيراً وهي : المساجلات والمناظرات والمعارضات.

١ — المساجلات والمناظرات :

أمّا المساجلات والمناظرات الأدبية واللغوية التي كان المنصور بن ابي عامر يعقدها في قصوره ومجالسه الرسمية ، فقد كانت هي ايضاً من ابرز مظاهر النشاط الأدبي والفكري في الأندلس عامة، وقرطبة خاصة ، إذ كان المنصور حينما يفد عليه شاعر جديد ويجتاز اختباره الأول يوحي إلى ندماء مجلسه المختصين فيما يدّعي الوافد علمه ومعرفته ان يجتمعوا في مجلسه لكي يناقشوه فيما يدّعي علمه ، ويكشفوا عن صدق موهبته او عدمه .

وحتى يعمل المنصور على إثارة المنافسة فيما بينهم ، ويتأكد من مواهب الأدباء الوافدين، كان يحرص حرصاً واضحاً على ان يشهد مثل هذه المجالس من ناحية ، وان يشهدها من كانوا ينافسون الوافد او يعترضون عليه من أدباء مجلسه ونقاده من ناحية أخرى .

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك تلك المساجلة التي دارت ما بين العاصمي والزبيدي من جهة ، وصاعد البغدادي من جهة أخرى حينما استقر به المقام في مجلس المنصور ، وادعى إنّه يجمع في حوزته معارف متعددة متنوعة فيما يذكر ابن بسام ، وذلك إذ يقول : «اجتمع عند المنصور بن ابي عامر اعيان

الأوان كالزبيدي والعاصمي وابن العريف ومن سواهم ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا صاعد يزعم إنّه متقدم في هذه الآداب التي انتم سرجها ، واهلتها السارية. واحب ان يمتحن ما عنده . فوجه اليه ، ودخل والمجلس قد احتفل فخجل ،فرفع المنصور مجلسه وآنسه ، وسأله عن ابي سعيد السيرافي ، فزعم إنّه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه . فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة في الكتاب فلم يحضره فيها من جواب . واعتذر أنّ النّحو ليس جلّ بضاعته ، ولا رأس صناعته ، فقال له الزبيدي : فما تحسن ايها الشيخ ؟ قال: حفظ الغريب . قال : فما وزن أَوْلَق (٣٠) ؟ فضحك صاعد وقال : امثلي يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب . قال الزبيدي : فقد سألناك ، ولا نشك أنّك تجهله . فتغيّر لونه وقال : (افعل) . قال الزبيدي: صاحبكم ممخرق ! قال له صاعد إخال الشيخ صناعته الأبنية . قال : أجل . قال صاعد : وبضاعتي انا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ،وفك المعمّى ، وعلم الموسيقى . قال : فناظره ابن العريف فظهر عليه صاعد ، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلاّ أنشد عليها شعراً شاهداً، أو اتى بحكاية تجانسها، فازداد المنصور به عجبا» (٣١) .

وفيما سبق ما يدل دلالة واضحة على انّ صاعداً — على الرّغم من عدم توفيقه في علم اللغة والنحو — استطاع بذكائه وفطنته ان يلفت الأنظار اليه ، وأن يتخلص من هذا الاختبار العسير ، ومن هذا الموقف الصعب الذي وضعه فيه المنصور كما نرى — إذ حوّل الموقف إلى جانبه ، وانتقل من موقف المُمتَحَن المُهاجَم إلى موقف المُمْتَحِن المُهاجِم وخاصة بعد ان تغلب على منافسه ومعارضه الذي لا يُستهان بعمله ومعرفته ابن العريف . فاستطاع بذلك أن ينتزع إعجاب المنصور مرة أُخرى ، وأن يحظى بثقته ورضاه من ناحية ،

وأن يثبت لمنافسيه ومعارضيه في مجلس المنصور أنّه متمكّن من ادوات فنّه من ناحية أخرى. يقول العاصمي: «.. ثم سألنا صاعد يوماً فقال: ما معنى قول امرئ القيس (٣٢)

كأنّ دماءَ الهاديات بنحْرِهِ   عُصارةُ حِنّاء بشَيْبٍ مُرَجّلِ

فقلنا: هذا واضح، وإنما وصف فرساً اشهب عقرت عليه الوحش فتطاير دمها إلى صدره فجاء هكذا. فقال صاعد: سبحان الله! انْسيتم قوله قبل هذا في صفته (٣٣):

كُميتٍ يزِل اللبْدُ عن حال متْنِه   كما زَلّت الصفْواءُ بالمُتنزلِ

قال: فبهتنا وكأننا لم نقرأ البيت قط. وقد اضطرنا إلى سؤاله، فقال: إنما عني احد وجهين: إما أنّه نضح صدره بالعرق وعرق الخيل ابيض، فجاء مع الدم كالشيب، وإما اشياء كانت العرب تصنعها وذلك انها كانت تسم باللبن الحار في صدر الخيل فيتمعط ذلك الشعر، وينبت كأنه شعر ابيض، فأيّاً ما عنى من احد الوجهين فالوصف مستقيم» (٣٤).

وحينما ادرك صاعد انّ منافسيه في بلاط المنصور فشلوا في إبعاده عن مجلسه، وأنّه تفوّق على ألدّ خصومه منهم، اخذ يناقشهم في مسائل اللغة والأدب، ويتحداهم بتفوقه عليهم في حضرة المنصور ابن ابي عامر، حتى يدحض عنه ما تناهى إلى مسامعه من طعن في مواهبه، ويؤكد له أنّه في مستوى علماء مجلسه الذين يختبرونه. يقول المراكشي: «... قال ابو عبدالله وحدثنا ابو محمد علي بن احمد قال: حدّثني ابو الخيار مسعود بن سليمان بن مغلب الفقيه أنّ ابا العلاء صاعداً سأل جماعة من اهل الأدب في مجلس المنصور بن ابي عامر عن قول الشماخ بن ضرار:

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية عطلا حسّانة الجيد
تُدني الحمامة منها وهي لاهية من يانع المرد قنوان العناقيد

فقالوا هي الحمامة تنزل على غصن الأريكة او الكرمة فتنفضه ، فتتمكن الظبية منهُ فترعاهُ . فأنكر ذلك عليهم وقال : إنّ الحمامة في هذا البيت هي المرآة ، وهو اسم من اسمائها فأراد أنّ هذه الجارية المشبّهة بالظبية إذا نظرت في المرآة ادنت المرآة منها في المنظر شعرها الذي هو كقنوان العناقيد من بائع الكرم او المرد فرأته) (٣٥) .

هذا وكثيراً ما كان المنصور نفسه في مجالسه الرسمية يفاجيء الشاعر الوافد على مجلسه ببعض المسائل او القضايا اللغوية التي قد يكون هو على علم بها ، ليتأكد من تمكنه ويختبره . ومن الأمثلة على ذلك ما يرويه لنا ابن بسام ، وذلك إذ يقول في معرض حديثه عن صاعد — «... وقال له المنصور يوماً ما الخنبشار ؟ قال حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عُقِدت محبّتها بقلبي كما عُقِد الحليبُ بخنبشار » (٣٦)

ولكن هذا لا يعني في حالة من الاحوال انّ صاعداً قد وُفّق في جميع الاختبارات التي تعرّض لها في مجالس المنصور الرسمية التي اتّخذت طابع المساجلات والمناظرات كما تقدّم . وإنما كانت الذاكرة تسعفه حيناً ، وتخونه في احايين أُخرى ، ومع ذلك فإنّ سرعة بداهته وسعة حفظه من ناحية ، وخفة روحه ودعابته من ناحية أخرى كل ذلك جعله محبباً إلى المنصور مقرباً منه ، إذ كان يتجاوز عن بعض عثراته ، وينتصر له حتى يجنبه الإحراج ، يقول العاصمي النحوي : «... لمّا سألناه مراراً عن مسائل من النّحْو بحضرة المنصور فقصر فيها ، قال ابن ابي عامر : فإنّه من طبقتي في النّحْو أنا أُناظره» (٣٧) .

ومهما يكن من امر ، فإنّ هذه المناظرات والمساجلات عرفتنا إلى طرائق المنصور وافانينه في الكشف عن مواهب ادباء مجالسه وشعرائه من ناحية ، وإلى دقّة نظر صاعد في الأدب وسعة حفظه وثقافته من ناحية أُخرى . كما عرّفتنا إلى دور المنصور في تنشيط الدراسات اللغوية والأدبية .

٢ — المعارضات :

وأمّا المعارضات ، فهي طريقة أُخرى من طرائق المنصور بن ابي عامر التي استخدمها للكشف عن طاقات شعراء مجالسه واختبار مواهبهم إذ كان إضافة إلى حبّه الشعر والشعراء يحرص حرصاً كبيراً على صقل مواهبهم وتفتيح قرائحهم من ناحية، وعلى استثمار طاقاتهم الفنية وتسخيرها لخدمته من ناحية أُخرى .

ولذا فقد طلب إلى صاعد في احد مجالسه ان ينظم قصيدة على منوال قصيدة ابي نواس في مدح الخصيب التي مطلعها :

أجارة بيتينا ابوك غيور   وميسور ما يُرجى لديك عسير

ومع أنّ صاعداً اعتذر عن ذلك مدعياً اجلاله ابا نواس الا أنّ المنصور الحّ عليه (٣٨) فأنشده قصيدته التي مطلعها :

خِذالَ البُرى إنّي بكنّ بصيرُ   طوتكن عنّي خِلسةٌ وقتيرُ

ومنها :

وباتت كما باتت مهاةُ خميلةٍ   لها جُؤذر عند الصراة عقيرُ
وقد اكلت اشلاؤه فكأنّها   مُقَسّمة عند القداح جَزورُ
كما بغَمَت من شجْوها أمٌّ واحد   أُتيح لها مثلُ الزجاج طريرُ
لدن غدوة حتى صمت شمس يومها   وفي ابهرَيْها رَنّة وزفيرُ
تَسوف ثراهُ عن مَشَقّ إهابه   كأنّ اسابيّ الدماء عَتيرُ (٣٩)

ولكنّ صاعداً اخفق في هذا الاختبار ايضاً ، ولم يوفق في هذه القصيدة التي لم تصل إلى مستوى قصيدة ابي نواس التي كان المنصور معجباً بها ايمّا إعجاب ، إذ جاءت معانيها سطحية ، وصورها تقليدية غير مبتكرة ، وكيف لا يكون ذلك وقد دفع صاعد إلى نظمها دفعاً ؟ يقول ابن بسام : «.. الا تراه كيف صرّح باليأس ، عن شق غبار ابي نواس ؟ ولكنّ ابن ابي عامر حمله على الغرر ، وعرّضه لسوء الخبر» (٤٠) .

ويبدو لي أنّ المنصور كان يعلم في قرارة نفسه أنّ صاعداً على الرّغم من موهبته وسرعة بداهه لا يستطيع ان يعارض قصيدة ابي نواس . ولكنّه اراد إضافة إلى اختباره ان يحرجه ،وان يعرفه حدود موهبته الشعرية ،وخاصة بعد ان ادرك كذبه وسرقاته . وهذا واضح في اصراره والحاحه الشديد على تلك المعارضة مع اعتذار صاعد وتصريحه بعدم معارضة ابي نواس ومجاراته. وربما كان يتوقع من صاعد ان ينجح في هذه المعارضة ، وأن ينظم فيه قصيدة على منوال قصيدة ابي نواس تخلد ذكره كما خلّد ابو نواس الخصيب اعتقاداً منه أن في بلاط شعراء لا يقلون في موهبتهم ومقدرتهم عن مواهب وقدرات شعراء المشرق المشاهير من امثال ابي نواس وغيره .ولذا، فإنّه حينما ادرك عجز صاعد وتقصيره عن تحقيق رغبته في معارضة تلك القصيدة ، طلب إلى ابن دراج في مجلس آخر ان يعارض القصيدة نفسها ،فنظم قصيدته التي مطلعها (٤١) :

دعي عزمات المُستضام تسيرُ فتنجدُ في عُرض الفلا وتَغورُ

وقد استطاع ابن دراج بهذه القصيدة الطويلة الرائعة ان يشبع رغبة المنصور من ناحية ، وأن يحقق نجاحاً آخر عنده ، إذ ابدع أيّما إبداع ، ولا سيّما حينما صوّر فيها وداعه زوجه وطفله الرضيع الذي كان في المهد ، وحينما

مدح المنصور وتغنّى بمآثره وصفاته . ومن هنا ، فقد غلب على هذه القصيدة صدق العاطفة ، وجمال التصوير ، وعمق المعاني ، وكيف لا يكون ذلك وابن درّاج فيها يعبّر تعبيراً صادقاً عن تجربة حقيقية كان قد عاشها وتفاعل معها ؟ .

ثمّ إن ابن دراج قد وُضع في موضع اختبار وتحد ، فاستغل جلّ طاقاته ومواهبه الفنية في هذه القصيدة ، حتى يرسّخ اقدامه في بلاط المنصور ، ويثبت له أنّه قادر على التحدّي والمعارضة ، حتى وإن كانت لمشاهير الشعراء . ومن هنا ، فقد نالت هذه القصيدة شهرة واسعة في المشرق والمغرب على حد سواء (٤٢) ، وكانت سبباً في سطوع نجمه في دولة المنصور .

ومهما يكن من امر هذه المعارضات والغاية التي كانت من اجلها ، فإنّها قد اسهمت بطريق مباشر او غير مباشر في تنشيط الحركة الشعرية في قرطبة خاصة والأندلس عامة ، كما اسهمت في إحياء التراث الشعري القديم ، لما فيها من إحياء لذكر الشعراء وقصائدهم المعارضة . إضافة إلى أنّها كشفت لنا عن دور المنصور في تشجيع الشعراء من ناحية ، وتقديره للإبداع والمبدعين واستعانته بهم من ناحية أخرى .

ثانياً : المجالس غير الرسمية (مجالس اللهو والطرب) :

لم يكن الأمر في مجالس المنصور بن ابي عامر التي كان يعقدها في قصره يقتصر على الطابع الرسمي الذي كان يغمره الإعداد والتخطيط من اجل انتقاء شعراء الدولة والكشف عن مواهبهم وقدراتهم . وإنّما تجاوز ذلك إلى مجالس اللهو والطرب والأُنس التي كان يعقدها في قصره ما بين الفينة والفينة ، وخاصة حينما يفرغ من مشاغل الدولة والحكم ، ويميل إلى الدعة والفراغ ولعل نظرة شاملة في كتب الأدب والتراجم الأندلسية تعطينا صورة واضحة

عن مبلغ اهتمام المنصور ورجال دولته بمثل هذه المجالس التي عملت على ازدهارها وشيوعها عوامل متعددة ، ومنها: وفرة الغلات والموارد الاقتصادية التي كانت الأندلس عامة وقرطبة خاصة تنعم بها آنذاك ، والحريات العامة التي تمتع بها الأندلسيون عامة والطبقة الحاكمة خاصة، ثم إنّ كثرة الحروب والانتصارات التي احرزها المنصور قد جعلت قصور الأُمراء والحكام غاصة بالحظايا والقيان .

هذا ويضيف الدكتور هيكل إلى هذه العوامل عاملا آخر ربما كان فيما اعتقد من اقوى العوامل التي اسهمت في شيوع هذه المجالس يتمثّل في حب المنصور نفسه حياة اللهو والأُنس . وذلك إذ يقول : «... وقد كان المنصور نفسه قدوة في ذلك، فهو على الرّغم من ظهوره بمظهر المتعصب للدين ليجامل الفقهاء ،ويقوي مركزه بين الشعب ، كان في حياته الخاصة متحرراً يحب الشراب والرقص واللهو » (٤٣)

وهكذا ، فإن الثراء الواسع الذي اصاب منه حكام الأندلس قد دفع بهم إلى صنوف كثيرة من اللذات واللهو الذي اعانهم عليه التقاء الأجناس المختلفة من الناس من ناحية، والتساهل والحريات الشخصية من ناحية أُخرى ومن هنا، فليس غريباً وهذه الحال ان نقرأ عن ابن شهيد الشاعر المشهور يدعو المنصور بن ابي عامر إلى إقامة مجلس لهوهم وأُنسهم في قصره فيما يذكر ابن بسام ، وذلك إذ يقول :«... وكان صاعد كثيراً ما يمدح بلاد المشرق بمجلس المنصور ، ويباهي بأخبارها ، ووصف اشربتها واديارها ، فكتب الوزير ابو مروان عبدالملك بن شهيد إلى المنصور في يوم قرّ بهذه الأبيات :

أما ترى بردَ يومنا هذا | صيّرنا للكمون أفذاذا
قد فُطرت صحّة الكبود به | حتى لكادت تعودُ افلاذا

فادعُ بنا للشمول مُصطليا ... نُغذّ سيراً إليك إغذاذا
وادعُ المُسمّى بها وصاحبَهُ ... تَدعُ نبيلاً وتَدعُ أُستاذا
لو مَعْبدا أو غريضه لحقا ... لكان عن ذا وذاك أخّاذا
ولا تُبال أبا العلاء زها ... بخمر قُطربُّل وكَلواذا
مادام من أرملاط مَشربُنا ... من دَيْر عمّا وطيز نابادا (٤٥)

ومما تقدّم ، نلاحظ أنّ القيم في المجتمع الأندلسي قد اختلفت عمّا كانت عليه في المجتمع المشرقي عامّة والبغدادي خاصّة ، حيث كانت الطبقة الحاكمة تتستر في معاصيها ولهوها إلى حدما . وأمّا في الأندلس ، فعلى الرغم من التزمّت الفكري والتعصّب المذهبي الذي فرضه المنصور على الفلاسفة والمتكلمين ، وعلى الرُغم من حرصه الشديد على مجاملة الفقهاء إرضاء لهم ، لكي يكسب ثقتهم ، ويعمل على زيادة نفوذه السياسي والاجتماعي ، إلاّ أنّنا نجده وهو الذي دوخّ الأعداء ، وحقق الأمن والرخاء آنذاك يلبّي دعوة ابن شهيد ، فيعقد مجلس لهو وشرب ، ويدعو إليه الصفوة من كبار رجال دولته وخاصته من الوزراء والشعراء وغيرهم ، مقدماً ذلك على الاجتماع بأهله وعياله ، فيعكفون على الملذات ، ويتها لكون على الرّاح حتى استبدبهم الطرب ، وفعلت بهم الراح فعلها ، فتناوبوا الرقص . وفي هذا يقول ابن بسّام : ((...وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالعيال ، فأمر بأحضار الأصحاب ، واحضر الوزير أبا مروان ، وأخذوا في شأنهم ، فمرّ لهم يوم من الطيب لم يشهد ، وألونة من اللهو لم تعهد ، وطما الأمر وسما حتى تصايح القوم وتزافنوا ، ودار الدور ، ثمّ انتهى إلى الوزير ابن شهيد ، وكان لايطيق القيام لنقرس كان يلازمه ، فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عياش فارتجل الشيخ أبياتاً جعل يقود بها وينشد :

هاك شيخ قاده عُذر لكا | قام في رَقْصَته مُسْتَهلكا
لم يُطق يرقصها مُسْتَثْبتا | فانثنى يرقُصها مُستمسكا
عاقه من هزها مُعتدلا | نقْرس أنْحى عليه فاتّكا
طربَ اللهوُ وقد حُق له | طرّبا أرمضه حتى اشتكى
من وزير فيهمُ رقّاصة | قام من طيب يناغي ملكا
لو كنت كما تعرفْنني | قمتُ إجلالاً على رأسي لكا
قهقه الإبريق منّي ضحكا | ورأى رِعْشَة رجْلي فبكى)(٤٦)

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه المجالس لم تكن لغايات اللهو والشرب وحسب وإنّما كانت إلى جانب ذلك عاملاً من أبرز العوامل التي أسهمت في تنشيط الحركة الشعرية . إذ عملت على تفتيق قرائح الشعراء ، وفتحت أمامهم أبواباً واسعة للتأمل والتخيل ، فكانت مثاراً للقول والإبداع ، حيث كانوا يرتجلون فيها المقطعات الشعرية التي تتفق وطبيعتها . يقول بالنثيا : ((...ولم تكن مجالسهم مجرد اجتماعات للشرب . وإنّما اجتماعات أدبيّة شعرية كذلك . وكان المجلس ينقضي بين تقارض الشعر وارتجاله)) (٤٧) . ويقول الشوابكة ولم تكن هذه المجالس مقتصرة على القصف والراح بل كانت ـ بالإضافة إلى ذلك ـ ندوات ادبية يتجاذب فيها الادباء اطراف الحديث ، فمن خطبة الى رسالة الى ارتجال مقطوعة شعرية تتفق مع هذه المجالس)) (٤٨) .

ولم تكن المرأة بعيدة عن هذه المجالس . وإنّما كانت عنصراً بارزاً فيها، إذ خالطت الرجال واتحفتهم بألحانها وشدوها إلى جانب الرّاح ، وخاصّة في مجالس اللهو التي كان المنصور يعقدها في أحضان مدينة الزاهرة ذات الطبيعة الخلابة الفاتنة ويدعو إليها خاصته المقربة منه . وذلك على نحو مانرى في قول ابن حزم : ((...ونادمت المنصور بن أبي عامر في منية السرور

بالزاهرة ذات الحسن النضير ، وهي جامعة بين روضة وغدير ، فلما تضمخ النهار بزعفران العشي ، ورفرف غراب الليل الدّجوجي ، وأسبل الليل جنحه وتقلد السّماك رمحه ، وهمّ النسر بالطيران ، وعام في الأفق زورق الزبرقان أو قدنا مصابيح الراح ، واشتملنا ملأ الاتياح ، وللدجن فوقنا رواق مضروب ، فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أُنس القلوب :

قدم الليل عند سير النهار ... وبدا البدرُ مثل نصف سوار
فكأنّ النهار صفحة خدّ ... وكأنّ الظلام خطّ عذار
وكأنّ الكؤوس جامد ماء ... وكأنّ المُدام ذائبُ نار))(٤٩)

ومهما يكن من أمر هذه المجالس ، فإنّها قد كشفت لنا عن حياة الطبقة الحاكمة في الأندلس ، إذ كانت صورة صادقة عن حياتها الخاصّة ، وميلها إلى اللهو والترف حين يتاح لها أن تخلو إلى الفراغ والدعة .

المجالس وأثرها في الشعر :

يدلّ الاستقراء الداخلي أنّ مجالس المنصور بن أبي عامر ، وخاصّة الرسمية منها قد تركت آثاراً إيجابيّة متعددة أسهمت بطريق مباشر أو غير مباشر في تنشيط الحركة الأدبيّة والفكرية من ناحية ، والشعرية من ناحية أخرى . وقد كان من أبرز الآثار التي نجمت عن تلك المجالس المنافسة مابين أعضائها ، إذ كثيراً ما كانت تقع منهم الوقائع ، وتقوم بينهم المناقضات والخصومات ، كتلك التي وقعت مابين ابن العريف النحوي وصاعد البغدادي ويبدو لي أنّ هناك أسباباً كثيرة كانت تكمن وراء المنافسات والمناقضات التي كانت تقع في مجالس المنصور الرسميّة ، ومنها : أنّ المنصور بن أبي عامر أدرك أهمية المنافسة ودورها في إثراء الحركة الأدبيّة والشعريّة وازدهارها فعمد إلى إذكاء نارها بين شعراء مجلسه ، إذ كان يظهر ميله إلى جانب أحدهم

تارة (٥٠) ، ويفضل قول أحدهم على منافسه تارة أُخرى ، لكي يشحذ قدراتهم ويستثير طاقاتهم الفنية من ناحية ، ويضفي على مجالسه متعة أدبية بما يدور فيها من ناحية أُخرى . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما يرويه لنا صاحب النفح عن ابن سعيد ، وذلك إذ يقول : ((ذكر ابن سعيد أنّ ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامريّة من أبيات :

فالعامريّة تزهي | على جميع المباني
وأنت فيها كسيف | قد حلّ في غُمدان

فقام صاعد ، وكان مناقضاً له ، فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ، ومكّن سلطانه ، هذا الشعر الذي قاله قد أعدّه وروّى فيه أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالاً ، فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول من غير فكرة طويلة :

يا أيّها الحاجب المعْـ | ـتلي على كيوان
العامريّة أضحت | كجنّة الرضوان
فريدة لفريد | ما بين أهل الزمان
انظر إلى النّهَر فيها | ينساب كالثعبان
والطير تلتف شكرا | على ذرا الأغصان
والقضب تلتفّ سكرا | بميّس القضبان
والرّوض يفترّ زهوا | عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغَضّ يرنو | بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا | ر نفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها | في غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : مالك فائدة في مناقضته من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ فقال ابن العريف : إنّما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ، فقال له صاعد : فيخرج من هذا أنّ قلّة إحسانه لك أسكنتك وبعدّت عليك المأخذ ، فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما)) (٥١) .

ثم إنّ اجتماع هؤلاء الأفذاذ والنابهين من الأدباء والشعراء في بلاط المنصور إبن أبي عامر على هدف واحد وغاية واحدة ، قد عمل على تعزيز المنافسات والخصومات فيما بينهم وجعلها أشد وأقوى ، إذ كان كلّ واحد منهم يبذل قصارى جهده لكي يتفوّق على أقرانه ومنافسيه ويقدّم أجود ماتجود به قريحته من أشعار ، لينال ثقة المنصور ويكون قريباً منه. وعلى الرّغم من حرص المنصور على قيام المنافسات والمناقضات في مجالسه لما لها من أهمية في تشجيع الشعر وازدهاره ،إلاّ أنّه مع ذلك كلّه كان حريصاً على أن تكون العلاقة فيما بين شعرائه حميمة وثيقة ، وأن لايقودهم ذلك إلى التخاصم والتنازع .

هذا ، وقد يكون وراء هذه المنافسة أيضاً ماعرف عن الأندلسيين من التعصب (٥٢) ضدّ الوافدين على بلادهم من أدباء وعلماء المغرب والمشرق، إذ كانوا يرون فيهم منافسين لهم في بلادهم ومراكزهم فعملوا جاهدين من أجل إبعادهم عن مراكزهم ، واحتكار مجلس المنصور عليهم . ولذا فقد ائتمروا على صاعد واتّهموه في شاعريته وعلمه . وفي هذا يقول ابن بسّام في معرض حديثه عن صاعد : ((...ولمّا دخل قرطبة دفعوه بالجملة عن العلم باللغة ، وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه ، وما رضيه أحد من أهلها أيّام دخوله إليها ،ولا رأوه أهلاً للاخذ عنه ولا للاقتداء به))(٥٣) . وهذا

أيضاً مافعلوه مع ابن درّاج القسطلي حينما وفد عليهم،وأراد أن يصل أسبابه بالمنصور ، فنصبوا له الحبائل ، وحاولوا إبعاده عن مجلسهم ، لولا أنّه فرض عليهم نفسه فرضاً بموهبته وسرعة بداهته ، كما فرضها عليهم صاعد من قبل ، وخاصّة حينما لمسوا إعجاب المنصور بهما وتقريبه لهما .

وعلى أيّة حال ، فإنّ موقف المتعصبين الاندلسيين ممن كانوا في مجلس المنصور وما قاموا به لابعاد الوافدين عليهم من غير الاندلسيين، قد جعل الوافدين في موقف المتحدي الذي يريد ان يثبت وجوده وتفوقه بموهبته ومقدرته على القول والابداع . مما كان له أطيب الاثر على الحركة الشعرية وازدهارها .

ومن أبرز الآثار الايجابية التي نجمت عن مجالس المنصور أنّها كانت مثاراً للقول والإبداع ، إذ فتقت قرائح الشعراء، وأمدتهم بموضوعات جديدة للقول ، فتغنوا بوصفها وتصويرها . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قول الجزيري في وصف مجالس المنصور بن أبي عامر ، حيث يقول: (٥٤)

وتوسطتّها لجّة في قعرها … بنت السّلاحف ماتزال تُنقْنقُ
تنساب من فكّي هِزبْر إن يكن … ثَبْتَ الجنان فإنّ فاه أخرَقُ
صاغوه من ندّ وخلّق صفحتي … هاديه محضُ الدرّ فهو مطوّقُ
للياسمين تطلّع في عَرْشه … مثل المليك عرّاه زهو مُطرِقُ
ونضائد من نرجس وبنفسج … وجنيّ خيريّ وورد يَعْبقُ
ترنو بسحر عيونها وتكاد من … طرب إليك بلا لسان تَنْطقُ
وعلى يمينك سَوْسَنات أطلعت … زهر الربيع فهنّ حُسْناً تشرقُ
فكأنّما هي في اختلاف رُقومها … رايات نصرك يوم بأسك تخفقُ
في مجلس جمعَ السرورَ لأهله … ملكٌ إذا جمعت قناة يفرقُ
حازت بدولته المغاربُ عزّةً … فغدا ليحسُدها عليه المشرقُ

وقول أبي المطرّف بن أبي الحباب أيضاً في وصف أحد مجالس المنصور بالمنية العامرية (٥٥) :

لايوم كاليوم في أيامنا الأول ... بالعامريّة ذاتِ الماء والظُّلَلِ
هواؤها في جميع الدهر معتدل ... طيباً وان حلّ فصل غير معتدلِ
ماإن يُبالي الذي يحتلُّ ساحتها ... بالسعد ألاّ تحلّ الشمسُ في الحمل
كأنّما غرست في ساعة وبدا ... سوسانُ من حينه فيها على عجلِ
أبدت ثلاثاً من السوسانِ مائلةً ... أعناقُهُنّ من الإعياء والكسَلِ
فبعضُ نُوّارها للبعض منفتح ... والبعضُ منغلق عنهنّ في شغُلِ
كأنّها راحة ضمت أناملها ... من بعد ماملئت من جودك الخضل
واختُها بسَطت منها أناملها ... ترْجو نداك كما عوّدتها فصلِ

ثم إن موقف النقاد والمنافسين النابهين الذين كانوا في مجلس المنصور أسهموا بطريق مباشر أو غير مباشر في تنشيط الحركة الأدبيّة عامّة ،والشعرية خاصّة ، إذ كان هؤلاء يجعلون الشاعر الوافد في همّ ودأب لكي يصقل موهبته ويعمل على تنميتها ، فيقدم لهم وللمنصور أجود أشعاره ، ولا سيما بعد أن يجتاز الاختبارات التي كانت تعدّ له. ولذا،فإنّ ابن درّاج القسطلي فيما يذكر أُستاذنا الدكتور إحسان عبّاس (٥٦) كان يدأب على تجويد أشعاره ويسهر على حوكها قبل إلقائها في مجلس المنصور .

يضاف إلى هذا كله أنّ مجالس المنصور بن أبي عامر قد تركت آثاراً واضحة في مضامين الأشعار التي دار حولها شعر المجالس عامّة أو ماوصفت بها خاصّة من الناحيتين: الموضوعيّة والفنيّة . وأمّا من الناحية الموضوعيّة ، فقد دار شعر المجالس حول وصف الطبيعة الصامتة من ناحية،ومدح المنصور ابن أبي عامر من ناحية أُخرى ، إضافة إلى أنّ الشعراء في معظم الأحايين

كانوا يمزجون مابين الموضوعين: وصف الطبيعة ومدح المنصور . ولذا فقد ظهرت في أشعار المجالس صور الحدائق والبساتين والرياض وما فيها من أزهار وورود وأشجار ، كما ظهرت صور القصور وما فيها من مظاهر الحضارة والترف ، إضافة إلى صورة الممدوح وما يتحلى به من مآثر وصفات وأمّا من الناحية الفنيّة، فقد جاءت ألفاظ أشعارها خالية من التعقيد والغموض من ناحية ، ومناسبة للموضوعات التي نظمت من أجلها من ناحية أُخرى . ولعلّ ذلك مردّه إلى أنّ أشعار المجالس كانت تُلقى على البداهة ودونما إعداد سابق . كما أنّ معظم ماوصلنا من شعر المجالس جاء على صورة مقطعات قصيرة وذات أوزان شعرية قصيرة أيضاً حتى يناسب طبيعة المجالس وما يقال فيها .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الشعراء فيما كانوا يصفونه في مجالس المنصور لم يكونوا يصدرون عن تجارب حقيقية كانوا قد عاشوها وتفاعلوا معها ، وإنّما كانت الموضوعات المطروحة عليهم ليقولوا فيها مفروضة عليهم فرضاً فهم لايتناولونها كما تقع في نفوسهم . ولذا ، فإنّ ماقيل فيها مع جمال تصويره وابتكار معانيه لم يكن صادراً من داخل النفس أو نابعاً من الوجدان فهم يحملون على القول فيقولون . وذلك لأنّ المنصور كان يريد أن يجعل منهم أصداء لرغبته ، و ألسنة تعبّر عمّا يريد منها لا ماتريده هي . ولذا فقد كان المنصور حريصاً على صقل مواهبهم من ناحية ، واصطحابهم معه في معظم غزواته (٥٧) من ناحية أخرى .

وكأنني بالمنصور لايريد من الشعراء إلاّ الحياة له ، ولا يقولون إلاّ فيه ، ولا يعبّرو ن إلاّ عمّا يدور في ذهنه وخلده . ولذا فقد عاش الكثيرون منهم حياة أقرب ماتكون إلى خارج النفس منها إلى داخلها .

ومع ذلك كلّه ، فليس يعنينا ماكان يقال فيها من موضوعات ،أو ماكان يقال في التعقيب عليها ، إذ الشأن في ذلك إنّما يعود إلى البراعة في التصوير والمقدرة على الصياغة والإبداع .

هذا فيما يتعلّق بأثر مجالس المنصور الرسمية في الشعر . وأمّا مجالس لهوه وأُنسه التي كان يعقدها في قصوره أيضاً ويدعو إليها كبار رجال دولته وخاصته من الوزراء والأدباء ، فقد تركت هي الأخرى آثارها في الحياة الاجتماعية عامّة ، والشعر خاصّة ، إذ أشاعت فيه ظاهرة المجون ، فأصبح الشعراء يتغنون صراحة بمجونهم ومغامراتهم المكشوفة مع النساء دونما خوف أو وجل . وقد ساعدهم على ذلك الحريات العامّة التي تمتعوا بها آنذاك . وفي هذا يقول الأستاذ جودت الركابي : ((... كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ،فقد كانت الحياة الخاصّة متعة متصلة الحلقات ، وهنا تبدو الحرية مادامت لاتتصل بأُمور السياسة والدّين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية، ولهذا كنت ترى الأندلسي يهتك دون وازع ، وقد انغمس الشعراء والكتّاب في حمأة الدعارة ونطقت ألسنتهم بأفحش الأقوال ، وامتدت هذه الحرية إلى الملوك فرأيتهم يطاقون العنان للهوهم وطربهم وللهو الناس وطربهم ، مادام هذا اللهو وهذا الطرب لايمسان الدّين الذي له حرمته في النفوس (٥٨) ومن الأمثلة الواضحة على ذلك مادار بين الوزير عبدالملك بن شهيد والمنصور إبن أبي عامر نفسه بشأن الجواري)) (٥٩) .

وأخيراً أقول : إنّ هذه المجالس وما كانت تتضمنه من تنافس وتناظر ومعارضات وانشاد صدر عن صفوة رجال الأدب والشعر ، وما كان يثار فيها من ألوان النشاط الأدبي والفكري الذي تمثّل في حسّن المحاضرة ، وسعة المعرفة ،فقد أنتجت شعراً تسابق فيه الشعراء في اختراع المعاني ،وابتكار الصور ، وتوليد المبتكرات، كما أنتجت شعراً وأدباً وحكايات كان المنصور ينعم بها . ويقطف ثمارها ، إذ غالباً ما كانت في مدحه والثناء عليه .

الهوامش والتعليقات

(١) وهو : محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعروف بالمنصور معافري قحطاني أصله من الجزيرة الخضراء ، دخل قرطبة طالباً للعلم ١ الأدب والحديث ، ثم ارتقت حاله وتعلق بوكالـــة صبح ام الخليفة هشام المؤيد ، ولمامات الحكم تسلم المنصور الأمور وأصبح الحاكم الفعلي للأندلس ، وقد غزا خمسين غزوة ونيف ومات بمدينة سالم سنة (٣٩٢هـ) . انظر أخباره وتراجمه في الحميدي ، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، ط٢ ، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣م) ، ص١٣٢ وابن الخطيب ، لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط١ ، ٢ ، تحقيق محمد عبدالله عنان (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٧٤م)ص ١٠٢ — ١٠٥ .والمراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط١ (القاهرة : مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٩م) ص٢٨ ، وابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٧ ، ط١ ، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار الثقافة ١٩٧٩م) ص٥٦—٦١ ، والمقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ط١ ، ١ ، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار صادر ، ١٩٦٨م) ص ٣٩٦—٤٠٢ . وغيرها كثير .

(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ١٣١/١ . وانظر : الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ، ط١ ، تحقيق محمد الشوابكة (عمان : دار عمان ، ١٩٨٣م) ص٣٩٠ ، والمراكشي ، المعجب ، ص٣٠ .

(٣) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ١٣١/١ ، وانظر المراكشي ، المعجب ، ص٣٨ ، وابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ط٣ ، ١ ، تحقيق شوقي ضيف . (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤) ص١٩٩ .

(٤) الحميدي ، جذوة المقتبس ٣٩٩/١ .

(٥) علي أدهم ، منصور الأندلس ، ط١ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧٤م) ، ص١٥٧

(٦) وهو : أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي ، ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور بن أبي عامر سنة (٣٨٠هـ) . انظر الحميدي ، ٣٧٣/١ . وابن بسام ، الذخيرة ٨/٧ .

(٧) ابن بسام ، الذخيرة ، ٩/٧ .

(٨) انظر : شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط٧ ، (القاهرة : دار المعارف ١٩٤٦م) ص٣٢٥ .

(٩) أنظر : الحميدي ، الجذوة ، ٣٧٣/١—٣٧٤ ، وابن بسام ، الذخيرة ، ٣٥/٧ ، والمقري النفح ٨٣/١—٨٤ .

(١٠) انظر : أحمد ضيف ، بلاغة العرب في الأندلس ، ط١ (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٢٤م ص ٢٢—٢٣ .

(١١) وهو : أبو بكر الزبيدي اللغوي صاحب طبقات النحويين ولحسن العامة والاستدراك على العين . انظر الحميدي ، الجذوة ٧٤/١ .

(١٢) وهو : الحسين بن الوليد النحوي إمام العربية وأستاذ في الأدب ومقدم في الشعر . انظر الحميدي ، الجذوة ٣٠٠/١ .

(١٣) وهو : محمد بن الحسين التميمي شاعر مكثر وأديب مفتن ، كان عالماً بأخبار العرب وأنسابهم . انظر : الحميدي الجذوة ٩١/١ ، وابن سعيد ، المغرب ٢٠٦/٢ .

(١٤) وهو : أبو المطرف عبدالرحمن الحضرمي الإشبيلي ، أديب شاعر . انظر الحميدي ، الجذوة ٤٣٣/١ .

(١٥) وهو : أبو القاسم الحسين بن الوليد أديب مشهور وشاعر مكثر . انظر الحميدي ، الجذوة ١٨٢/١ .

(١٦) وهو : الوزير أبو مروان عبد الملك بن شهيد كاتب المنصور بن أبي عامر . انظر الحميدي الجذوة ٤٤٤/١ ، وابن سعيد ، المغرب ، ٣٢١/١ .

(١٧) وهو : أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب ، والد الفقيه أبي محمد ، كان وزيراً في الدولة العامرية ومن أهل العلم ا الأدب . انظر : الحميدي ، الجذوة ٣٣٠/١ .

(١٨) وهو : عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب وزير من وزراء الدولة العامرية وكتابها ، عالم أديب وشاعر مكثر من ذوي البديهة . انظر : الحميدي ، الجذوة ٤٤٤/١ .

(١٩) وهو : القائد يعلى بن أحمد بن يعلى ، كان شاعراً مكثراً . انظر الحميدي . الجذوة ٦١٥/٢ وابن سعيد المغرب ، ٢٠٤/١ ، وابن بسام ، الذخيرة ، ٧/ ٨٤ .

(٢٠) انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط١ ، ٢ تحقيق محمد عبدالله عنان القاهرة ، ١٩٧٤م(ص١٠٦—١٠٧ .

(٢١) انظر : الحميدي ، الجذوة ٣٧٣/١ . والمقري . النفح ، ٨٣/١—٨٤ ، والمراكشي ، المعجب ، ص٣٠ ، وابن بسام ، الذخيرة ١٩/٧ وص٢٦ .

(٢٢) ابن بسام ، الذخيرة ١٨/٧ ، والمقري ، النفح ٨٠/٣—٨١ .

(٢٣) ابن بسام ، الذخيرة ١٩/٧ ، والمقري ، النفح ٨١/٣ .

(٢٤) ابن دراج ، ديوان ابن دراج ، ط١ ، تحقيق محمود مكي (دمشق : المكتب الاسلامي ، ١٩٦١م) ص٣٧ .

(٢٥) الحميدي ، الجذوة ، ١٧٧/١ .

(٢٦) انظر ديوان ابن دراج ، ص٤٥ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص٤٤/٤٥

(٢٨) ابن بسام ، الذخيرة ١٩/٧ . ومتالع : جبل بناحة البحرين بين السودة والأحساء ، انظر : الحموي ، ومعجم البلدان ، ط١ (بيروت : دار احياء التراث ، ١٩٧٩م) ٥٢/٥ .وأما وضوى فهو : جبل على طريق المدينة بينه وبين ينبع مسيرة يوم ، وهو جبل ضخم ذوشعاب وأودية . الحموي ، معجم البلدان ٥١/٣ .

(٢٩) ابن دراج ، ديوانه ، ص٣٠٨ .

(٣٠) أولق على وزن فوعل . إذ أصلها ألق .

(٣١) ابن بسام ، الذخيرة ١٤/٧—١٥ . والمقري ، النفح ، ٧٨/٣ .

(٣٢) امرؤ القيس ، شرح ديوان امرىء القيس ، ط٣(بيروت : دار صادر ، ١٩٦٩م)ص٣٩.

(٣٣) المصدر نفسه ، ص٣٧ .

(٣٤) ابن بسام ، الذخيرة ٣٣/٧—٣٤ . والحميدي ، الجذوة ، ٣٧٦/١—٣٧٧ .

(٣٥) والحميدي ، الجذوة ٣٧٧/١—٣٧٨ والمراكشي ، المعجب ص٨٠/٨١ .

(٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ، ٣٢/٧—٣٣ . والمقري ، النفح ٨١/١ .
(٣٧) ابن بسام : الذخيرة ٣٣/٧ ، والحميدي ، الجذوة . /٣٧٧ ، والمراكشي ، المعجب ص٣٥ ٣٦ .
(٣٨) انظر : ابن بسام . الذخيرة ٢٢/٧ .
(٣٩) المصدر نفسه ، ٢٢/٧—٢٣ .
(٤٠) المصدر نفسه ، ٢٣٩٧ .
(٤١) ابن دراج ، ديوانه ص٢٩٧—٣٠٤ .
(٤٢) انظر المصدر نفسه ، ص٤٧—٤٨ .
(٤٣) أحمد هيكل ،الأدب الأندلسي ، ط١ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥م) ص٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٤٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ٢٦/٧—٢٧ ، والمغرب ٢٠٣/١—٢٠٤ ، والنفح ٢٦٠/٣— ٢٦١. والشمول اسم مفن بقرطبة . وأما أرملاط ودير عما ، وكلواذا ، وقطربل فلم أجد لها ذكراً في كتب الجغرافيا وهي أسماء مواقع .
(٤٥) ابن بسام ، الذخيرة ٢٧/٢٦/٧ .
(٤٦) ابن بسام ، الذخيرة ٢٧/٧—٢٨ ، والمطمح ص١٧٩ ، والنفح ٢٦١/١ ، والمغرب٢٠٣/١ ٢٠٤ .
(٤٧) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ط١ ، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة : النهضة المصرية ١٩٥٥م) ص٤٤ .
(٤٨) ابن خاقان ، مطمع الأنفس ، ص١١٨ .
(٤٩) المقري ، نفح الطيب ، ٦١٧/١ .
(٥٠) انظر ص٩ من هذا البحث .
(٥١) المقري ، نفح الطيب ٥٨٢/١.—٥٨٣ . وانظر أمثلة أخرى في الجذوة ٣٠١/١ والنفح ٧٩/٣—٨٠ .
(٥٢) انظر : الداية ،محمد ، تاريخ النقد الأندلسي، ط٢ (بيروت :مؤسسة الرسالة، ١٩٨١) ص٣٦ .
(٥٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ٩/٧ .
(٥٤) المقري ، نفح الطيب ٥٣٠/١ .
(٥٥) المقري ، نفح الطيب ٥٨٢/١ وأنظر أيضاً ص ٥٣١ ، ٥٨٣ .
(٥٦) انظر إحسان عباس ، تاريخ الأدب العربي في الأندلس عصر سيادة قرطبة ،ط٧ (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٥م) ص٢٣٨ .
(٥٧) انظر ابن الخطيب ، الإحاطة ١٠٦/٢—١٠٧ ،وهيكل ، الأدب الأندلسي ، ص٢٧٦— ٢٧٧ ، ٣٠٤ .
(٥٨) جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ط٤ ،(القاهرة : دار المعارف ١٩٦١م) ص٤٨.
(٥٩) انظر القصة والشعر في ابن بسام ، الذخيرة ٢٩/٧—٣٠ ، والمقري ، النفح ٤٠٠/١.

المصادر والمراجع

- أدهم ، عليّ ، منصور الأندلس ، ط١ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م) .
- ابن بسام ، علي ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط١تحقيق إحسان عبّاس ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٩) .
- بالنثيا ، انجل ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ط١، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة : النهضة المصرية ، ١٩٥٥م)
- الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ط١ ، (بيروت :دار احياء التراث ١٩٧٩م) .
- الحميدي ، محمّد بن أبي نصر، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ط٢ ، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣م) .
- ابن خاقان ، الفتح ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس ، ط١ ، تحقيق محمّد الشوابكة ، (عمان : دار عمّار ١٩٨٣) .
- ابن الخطيب ، لسان الدّين ،الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط١ ،تحقيق محمّد عبدالله عنان ، (القاهرة : ١٩٧٤م) .
- الداية ، محمّد ، تاريخ النقد الأندلسي ، ط٣ (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٩٨١م)
- ابن دراج ، أحمد ديوان ابن درّاج القسطليّ ، ط١ ، تحقيق محمود مكّي (دمشق : المكتب الإسلامي ، ١٩٦١م)

— الركابي ، جودت ، في الأدب الأندلسي ، ط٤ ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١م)
— ابن سعيد ، محمّد المغرب في حلى المغرب ، ط٣ ، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة : دار المعارف . ١٩٦٤م)
— ضيف ، أحمد ، بلاغة العرب في الأندلس ، ط١ (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٢٤م)
— ضيف : شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط٧/ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٤٦م)
— عباس ، إحسان ، تاريخ الأدب العربي في الأندلس — عصر سيادة قرطبة — ط٧ (بيروت دار الثقافة ، ١٩٨٥م)
— القيس ، امرؤ ، شرح ديوان امريء القيس ، ط٣ (بيروت : دار صادر ١٩٦٩م) .
— المراكشي ، عبدالواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط١ ، تحقيق محمّد سعيد العريان ، القاهرة : مطبعة الأستانة ، ١٩٤٩ م)
— المقريّ ، أحمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ط١ ، تحقيق إحسان عبّاس (بيروت : دار صادر ١٩٦٨)
— هيكل ، أحمد ، الأدب الأندلسي ، ط١ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥)